المشرق

تطويب العبد الامين الكردينال بلرمين

بقلم الاب لويس شيخو اليسوعي

جرت قبل سنتين في بلاد مختلفة اعياد بهيجة ذكرًا للسنة الثالثة من وفاة رجل الله وبطل الكنيسة المكرَّم الكردينال روبرتوس بلرمينوس اليسوعي . فبنسبة تلك المواسم نشرنا في المشرق (١٩ [١٩٢١]: ٥٧٠–٥٧٩) خلاصة سيرة ذاك المفضال نابغة عصره وفخر اوطانه . وختمنا كلامنا بابداء الرجاء في تمجيده قريباً بصفة طوبيّ فتسمح الكنيسة باكرامه على ما انتجا يتعرضهُ قدوةً على ابنائها ليسيروا على آثاره الشريفة

وها قد حقَّق الله امانينا في اواسط الشهر المنصرم . ففي اليوم ١٣ ايّار في الاحد الواقع بعد عيد صعود الرب الى السماء لبست كنيسة مار بطرس امّ الكنائس ومقام صخرة الايمان الغير المتزعزعة افخر حلاها وازدانت بمظاهر رونقها وبهائها فتقاطرت اليها جماهير المؤمنين من كل صوب وأوب حتى تزاحمت في سعة ارجائها الوقورهم المؤنقة وبلغ فرحهم اقصى حدوده اذ دخل حبر الاحبار صحن الكنيسة محمولاً على منصَّته البابويَّة ثمَّ أقيمت الاسرار المقدَّسة بحضرته بكل رونق وأبهة الى أن تُلي قرار قداسته معلناً للكنيسة جمعاء بسموّ فضائل روبرتوس بلرمينوس الايطالي المولد سليل الرهبانيَّة اليسوعيَّة وكردينال الكنيسة الرومانيَّة مدَّة حياته وبصحَّة المعجزات التي أيَّد الله بها قداسته بعد وفاته ومن ثمَّ ينظمهُ في عداد اولياء الله المطوَّبين ويسمح بعرض صوره في الكنائس والتبرُّك بذخائره وتقدمة الاسرار لله على اسمه . فأذيع الستار

عن صورة الطوبويّ فظهرت بين الانوار المشعّة تمثّل نوعاً صاحبها في ضياء جنان الخلد بين طغمات اولياء الله

*

وكأني بقرّائنا الكرام يوقفونني هنا ليسألوا وما الذي أهّل الكردينال بلرمينوس لهذه النعمة الفريدة والشرف السامي وكيف تحقّقت الكنيسة الكاثوليكية الاسباب الموجبة لنظمه في عداد الابرار ولاسيما انهُ مضى على الطوبويّ الجديد ثلاثمائة سنة بنيّف منذ انتقل الى جوار ربّه . اليس في تأخير تطويبه شبهة في سوء قداسته المزعومة . هذه ثلثة اسئلة ينبغي علينا الجواب عنها في هذه النبذة الحاضرة

١ ماذا أهّل الكردينال بلرمينوس لشرف التطويب

للكنيسة الكاثوليكيّة سُنَنٌ مرعيّة وقوانين ثابتة وَضَعها منذ قرون عديدة الاحبار الرومانيّون تجري بموجبها في تثبيت قداسة احد ابنائها قبل ان تسمح باكرامه والتشفّع به وإدراج اسمه في سجلّ اولياء الله . وهذا السجلّ على درجتَين الاولى درجة الطوبويين تُدوَّن فيه اسماء الذين اثبتت الكنيسة قداسة حياتهم فايّدها الله بعد موتهم بالمعجزات ومن ثمّ ترخص في اكرامهم علانية في بعض الامكنة او لبعض الجمعيّات فقط . والثانية درجة القدّيسين يحتوي سجلّهم اسماء الذين تحقّقت الكنيسة برارتهم السامية واجترحوا بإذن الله معجزات جديدة تشير الى منزلتهم الرفيعة في جنّة النعيم فتؤهّلهم لاكرام جميع المؤمنين دون استثناء

ولبلوغ كلتا الدرجتين تجمع مفوّض يُعنى أعضاؤهُ بفحص سيرة المؤمن او المؤمنة المطلوب اثبات قداستهما فلا يألون جهداً في البحث عن سيرتهم والتنقيب عن اعمالهم وتقرير الشهود الثقات الذين عرفوهم وعاينوا تصرّفهم او الذين نالوا بشفاعتهم الشفاء من عللهم وعاهاتهم بعد شهادة الاطباء على ان علاجهم غير طبيعي وكذلك يدقّقون النظر في كتاباتهم لا يدَعون منها قسماً الّا فحصوهُ لئلّا يكون فيها شيء من التعاليم المخالفة لعقائد الكنيسة ولآدابها المقدّسة ثمّ يعقدون المجالس المتعدّدة ريثما يتبيّن لهم

صورة

الطوبوي الكردينال روبرتوس بلرمينوس

(١٥٤٤–١٦٢١)

الحق بكل جلائه فيعرضون تقاريرهم على الحبر الاعظم لينظر فيها ويتحقق صحتها فيحكم الحكم الفصل في صاحبها . وربما دامت هذه الفحوص السنين الطويلة ينظر فيها عدة احبار متعاوبة

وهذا ما حصل في دعوى الكردينال بلرمين فانه ما كاد يتأثر به خالقه في ١٦ ايلول سنة ١٦٢١ حتى تردّدت اصداء الهاتفين بقداسته في كل انحاء الكثلكة . واخذ الرؤساء الروحيون بضعة اشهر بعد وفاته بجمع الشواهد الناطقة بسمو فضل رجل الله . وتشكّلت اللجنات تلك الغاية في المراطن التي عاش فيها . اعني في مسقط رأسه مونتيپولشيانو من اعمال توسكانا حيث ولد في ٤ تشرين١ سنة ١٥٤٢ وترعرع . ثمّ في مدينة رومية وفيها ترهّب ودرس على كبار المعلمين ثمّ علّم العلوم الدينية العليا ثمّ أقيم رئيساً على اخوته الرهبان رعاش ومات برتبة كردينال . وكذلك في مدينة نابولي حيث علّم الآداب والبيان واخيراً في مدينة كابوا التي نُصب على كرسي اساقفتها . وقد جرى هذا الفحص في المدن الاربعة في السنتين ١٦٢٢ و ١٦٢٣ فقام الشهود العيانيّون في عدد ٣٩ منهم ١٥ كردينالاً وبعد ان اقسموا على الانجيل الشريف اثباتاً لصدق شهادتهم رووا من اعمال بلرمينوس وفضائله ما يساويه باعظم اولياء الله . ولدينا حتى اليوم نصوص شهاداتهم المتازة . وما لبث احد الآباء اليسوعيين الاب جانك فوليغاني ان نشر ترجمة حياة الكردينال وطبعها سنة ١٦٢٤

ثمّ ألحّ المؤمنون على البابا اوربانوس الثامن بان يقرّر رسمياً المباشرة بتهيئة ما يلزم لتطويب خادم الله . فلبّى الحبر الاعظم دعاء الطالبين وامر في ١٥ ك ١ سنة ١٦٢٦ بان يُجري الاساقفة الفحص الرسمي عن سمو فضائل الكردينال فعادت اللجنة الى المدن السابق ذكرها واستدعوا ٩٣ شاهداً من اوثق الناس حكماً وادقهم علماً فدوّنوا شهاداتهم وكانت كلها لسان واحد في اطراء قداسة بلرمينوس الفائقة مع تفصيل معلوماتهم في ذلك

فشهد اهل مونتيپولشيانو على انّ مواطنهم الشاب تفرّد بفضائله بين ناشئة وطنه فأثنوا على طهارة قلبه وتقواه وعبادته نحو آلام السيد المسيح وامه البتول الطاهرة وعلى نشاطه في الدروس وقدوته الصالحة لرفقته من طلبة العلوم

وقرّر شهود رومية انهم عرفوه دارساً ومعلماً ورئيساً وكردينالاً فكان في

كلّ هذهِ الاحوال مثالاً حيًّا للكمال المسيحي والرهباني محسناً في تصرُّفهِ مع الجميع لا تأخذهُ في اتمام واجباتهِ نحو مرؤوسيهِ واخوتهِ ورصفائهِ الكرادلة والاحبار الرومانيين لومةُ لائم اذ كان لا يرى في اعمالهِ سوى خدمة الله وصالح الكنيسة متحايدًا عن كلّ مراعاة للاشخاص

وصرّح شهود اسقفيَّتهِ في كابوا انهُ جرى بكل تدقيق بموجب القوانين التي وضعها المجمع التريدنتيني للاساقفة من ارشاد الشعب في كلّ اسبوع وعيادة المرضى واسعاف الفقراء والعناية بتثقيف الاحداث وتهذيب الاكليروس والدفاع عن حقوق الكنيسة واوقافها

ثمَّ انتدب الاحبار الرومانيُّون رجالاً من اكبر العلماء وارسخهم قدماً في المعارف الدينيَّة وعهدوا اليهم فحص تآليف بلرمينوس لأنهم يجدون فيها شيئاً يحيد وان قليلاً عن تعاليم الآباء والقديسين ومعتقدات الكنيسة الجامعة . ومن المعلوم انَّ تآليف بلرمينوس المطبوعة تبلغ الستين عدًّا منها نظريَّة كمصنَّفاتهِ الجداليَّة وابحاثهِ اللاهوتيَّة وردودهِ على كتابات ملك انكلترَّة جاك الاوَّل وغيرهِ من الخراطقة . ومنها كتابيَّة كتفسيرهِ لمزامير داود . ومنها ادبيَّة وتعليميَّة كمثل تعليمهِ المسيحي الطوَّل والملخَّص وغراماطيقهِ العبراني . ومنها تاريخيَّة كتاريخ الكتبة الكنسيين . ومنها روحيَّة كتأليفهِ عن الشوق الى السماء واقوال السيد المسيح السبعة على الصليب . ومنها اهليَّة كرسائلهِ البالغة ٣٠٧ عدًّا . هذا فضلاً عن عدَّة كتب مخطوطة لم تُنشر الى الآن . فاستدعى فحص هذه الكتابات سنين طويلة الى ان صرَّح الجميع بان تلك التآليف لا غُبار عليها وانَّها صحيحة سليمة من كلّ عيب تشرّف الكنيسة وتُفيد المؤمنين وغيرهم ايضاً . فصدَّق مجمع الطقوس على حكم اللاهوتيين في ٩ شباط سنة ١٦٧٥

وكانت كلّ هذه المقدَّمات قد استغرقت نيفاً ونصف قرن وهي المدَّة المعيَّنة من الكرسيّ الرسولي قبل الاعلان بقداسة احد اولياء الله . فبأمر البابا اقليمس العاشر اجتمعت في غرَّة ايلول سنة ١٦٧٥ لجنة خصوصيَّة من كرادلة واساقفة ولاهوتيين وعددهم واحد عشرون شخصاً منهم ١١ كردينالاً او اسقفاً والباقون لاهوتيُّون ورهبان ممتازون بعلمهم وفضلهم من ست رهبانيَّات مختلفة فهؤلاء استنادًا الى كلّ المعلومات التي وجدوها في تقارير الشهود واللجنات الفاحصة حكموا

بان رجل الله الكردينال بلرمينوس تجاوز في حياته درجة القداسة الوسطى فبلغ الى ارفع درجاتها وامضوا حكمهم بحتومهم لم يمتنع عن الحكم الا واحد منهم السيد بيازا وكان دخل حديثاً في مجمع الطقوس لم يطلع كالباقين على تفاصيل الدعوى

ثمّ تكرّر عقد لجنة الفاحصين والكرادلة سنة ١٦٧٧ فأيد معظمهم الحكم السابق . وهكذا جرى ايضاً سنة ١٧١٣ وسنة ١٧٥٣ في عهد الحبرين الاعظمين اقليمس الحادي عشر وبندكتوس الرابع عشر فكان رؤساء تلك اللجنات بعد جلساتهم المتوالية يرفعون الى مقام رئيس الكنيسة نتيجة انجاحهم وهي بالاجمال موافقة لشواهد اللجنات السابقة القائلة بأهلية الكردينال بلرمينوس الى ان يُدرج اسمهُ في سجل الطوبويين

٢ كيف تحققت الكنيسة قداسة بلرمينوس

قد امتزج الجواب على هذا السؤال الثاني بجوابنا على الاوّل فانّ تقارير الشهود العيانيين واللجنات المتوالية للفحص عن كلّ اعمال وكتابات الكردينال بلرمينوس لم تأخذها يدُ الضياع فانّها حتى اليوم مجموعة في أضابير مضبّرة قد طُبع منها قسمٌ كبير وكلّها مختومة بامضاء الفاحصين فيكفي الرجوع اليها لتحقيق قداسته

ثمّ انّ الذين كتبوا حياة الطوبوي الجديد رووا له من الفضائل ما يُقضي منه العجب فانّهُ كان كلّ يوم يقضي زمناً في الصلاة والتأمل الروحي ويتلو فرض السيدة ويصوم ثلاثة ايّام في الاسبوع الاربعاء والجمعة والسبت ويرضى بشظف العيش والزهد التامّ . وفي ايّام كردينالّيته واسقفيته كان يوزّع على الفقراء والمساكين نحو ثلثي إقطاعه ويتنع بافقر الملابس واسذج المساكن

وكان تواضعهُ يلوح في كلّ شخصه في كلامه واعماله . ولولا امر البابا اقليمس الثامن تحت تبعة الخطأ الميت لما قبل شرف الرتبة الكردينالّية . والمرجح انّ اخوته الكرادلة كانوا اختاروه لتدبير الكنيسة جمعاء بعد وفاة لاون الحادي عشر لولا ننوره من هذا المنصب الرفيع ولولا خوف بعضهم من شدّة استقامته في السياسة والتدبير وسعيه المعروف في اصلاح كلّ خلل ونقص في الكنيسة الرومانية

ومن فضائله التي اهّلته للتطويب محبّتهُ البالغة للايمان المستقيم فانّهُ كان يتلهّب

غيرةً في ارشاداته ومواعظه وتعليمه على حفظ وديعة الايمان سالمةً من كلّ شائبة . وقد اظهر ذلك خصوصاً بمجادلاته مع المراطقة والشيع البروتستانيَّة فانَّ كتبهُ التي خلَّفها في ذلك لا تزال حتى اليوم تشهد لهُ بالبراعة في تفنيد اضاليل المبتدعين وهي التي احرزت لهُ شكر الكنيسة فدُعي بمطرقة المراطقة . وكان مع قوَّة براهينه في بيان حقائق الايمان يتحاشى كلّ كلمة قارصة تمسُّ عرض مناظريه حتى انَّهم كانوا يأتون الى مدينة لوفان في بلجيكة من انكلترَّة وهولندة والبلاد المجاورة ليسمعوا تعليمهُ فيسبي قلوبهم بلطفه ورقَّة طباعه . فاعاد كثيرين منهم الى حِجْر الكنيسة

وكلّ هذه الصفات الفريدة التي امتاز بها بلرمينوس هي التي حدَتْ بالبابا اقليمس ان يلبسهُ ارجوان الكرادلة واعلن ذلك بقوله : « قد اخترناهُ لانَّنا لم نجد لهُ نظيرًا في كنيسة الله » . وقد قال كثيرون بعدهُ انَّهُ لم يقم في بيعة الله اشبه بالقديس كارلوس بوروماوس رئيس اساقفة ميلانو من بلرمينوس

وزد على ما تقدَّم عدَّة معجزات شرَّف الله بها عبدهُ في حياته وبعد مماته ذكرنا منها في ترجمته السابقة إحياءهُ لتينة محروقة اتت ببركته باثمار شهيَّة . ثمَّ تجديدهُ لمعجزة السيد المسيح في توفير صيد السمك لاحد المحتاجين وكذلك ثبوت قنينة من دمه المائع حتى اليوم . وقد فحص اصحاب الامر عجائب اخرى حدثت بشفاعته واثبتت قداستهُ في اعين البشر فقرَّر الاختصاصيُّون رسميًّا صحَّتها

٣ ما هو السبب لتأخير حكم الكنيسة في قداسة بلرمينوس

لا جرم ان يكون خطر على بال قرَّائنا هذا المشكل : كيف امكن الكنيسة بعد ما عرفَتْهُ من قداسة الكردينال بلرمينوس ان تتوقَّف عن اكرامه وتطويبه

الجواب البديهي على هذا المشكل ان ذلك ادلُّ دليل على حكمة الكنيسة الرومانيَّة وفطنتها في اعلان قداسة ابنائها فانَّها تعلم انَّ الزمان خيرُ مرشد الى إثبات حقائق الامور اذ لا يبقى مدًى للغايات البشريَّة ولا سعة للاهواء الباطلة . فان صبرت قداسةُ احدٍ على نسيان الزمان وانتقاد الأباعد فذلك دليل على انَّ الامر صادرٌ من الله لا نصيب لهُ في مكر البشر واهوائهم العالميَّة

وهذا قد صحَّ تماماً في بلرمينوس فانَّ الكنيسة منذ ثلاثمائة سنة راغبةٌ في إعلان

قداسته وإكرامه لولا انَّ ظروفاً شتَّى كانت تعيقها عن ذلك فتارة يموت الاحبار الرومانيُّون فينصرف همُّ خلفائهم الى ما هو أمسُّ واوجب. وتارة يتحامل اعداء الكنيسة على الرهبانيَّة اليسوعيَّة فيخاف البابا ان يهيّجوا بغضاء هؤلاء المعادين كما حدث في فرنسة بدسائس الجنسينيين والغليكان المعارضين لتعليم بلرمينوس. وخصوصاً بعد إلغاء الرهبانيَّة اليسوعيَّة فانَّ دعاوى تطويب ابنائها وإثبات قديسيها ضُرب عنها الصفح. لكن هذه الدعوى عاد اليها الاحبار الرومانيُّون بعد انبعاث الرهبانيَّة اليسوعيَّة في أيام البابا لاون الثاني عشر سنة ١٨٢٨ ثمَّ في السنة ١٨٩٠ في عهد البابا لاون الثالث عشر واخيراً على عهد البابا بندكتوس الخامس عشر الذي كان يودّ ان ينهي هذه الدعوى قبل وفاته الَّا انَّ الله اختار لذلك الحبر الجليل الجالس اليوم سعيداً على كرسيّ هامة الرُّسُل البابا بيوس الحادي عشر وقد اشبه هو بلرمينوس في بعض مهمَّاته فانَّ كليهما عُهد اليه نظارة المكتبة الفاتيكانيَّة فانَّ بلرمينوس توكل عليها بامر البابا بولس الخامس سنة ١٦٠٦ كما استدعى البابا بندكتوس الخامس عشر الكردينال راتي الى المهمَّة عينها

ومن ثمَّ لا نرى في تأخير هذه الدعوى ما يبخس بسموّ قداسة بلرمينوس بل نرى في ذلك نعمةً جديدة وعناية خاصَّة ليجد ارباب الكنيسة مثالاً من طبقتهم يأنسون به في سلوكهم ورعاية الحراف الناطقة التي تحت امرهم والدفاع عن الحقوق المقدَّسة التي جعلها الله في عهدتهم ليذودوا عن حياضها بكل ما لديهم من القوى حتى سفك دمائهم في سبيلها

الديناميت

اصلهُ وتركيبهُ ومنافعهُ ومضارّهُ

للاب س . م اليسوعي

كلّ يعلم ما ادَّتهُ المواد المنفجرة من الخدم في عصرنا. فلم يَعُد يمكن الاستغناء